# أي أخلاق للزمن الحاضر؟

## قراءة زيغمونت باومان

بيار. أنطوان شاردل (*)

ترجمة: محمد جديدي

باحث ومترجم جزائري

(*) أستاذ الفلسفة الاجتماعية والإتيقية بالمعهد الوطني للاتصالات إفري (فرنسا).

كتب عالم الاجتماع زيغمونت باومان (ZygmuntBauman) المولود في (١٩٢٥)، حوالي عشرين كتابًا أربعة فقط منها ترجمت إلى الفرنسية: التكاليف البشرية للعولمة (Les coûts humains de la mondialisation)؛ الحداثة والهولوكست (Modernité et Holocauste)؛ الحياة مفتتة (La Vie en miettes) ومؤخرًا، الحب السائل. هشاشة العلاقات بين البشر[1] (L'Amour liquide.De la fragilité des liens entre les hommes). وعلى الرغم من أن ما بعد الحداثة تفسر عادة كمؤسسة تفكيك معمّم من دون طموح إتيقي أو سياسي، فإن زيغمونت باومان من دون أن يسعى زيغمونت باومان لتمجيد ما بعد الحداثة ولا نقدها باختصار، بل يقترح دراستها في خصائصها المجتمعية الأكثر وضوحًا. وإذا كان فكر باومان قد ظل مطبوعًا لمدة طويلة بالماركسية، فإن انشغاله المركزي في هذه السنوات الأخيرة ارتكز بالأحرى في التعرف على تشظّي بنيات المعنى قيد العمل فيما بعد الحداثة. يمكننا ملاحظة مراحل مختلفة في تفكير زيغمونت باومان، وبشكل خاص انطلاقًا من مؤلفاته الأربعة المترجمة إلى الفرنسية والتي نقترح تقديم ملامح عنها، وكل مرحلة تقع ضمن أفق نقدي نوعي جدًّا.

## بروز العصر ما بعد الحداثي والتباسات التجربة الإتيقية:

بالنسبة إلى زيغمونت باومان، فإن تجربة محدودة مثل الهولوكست تسمح كشف التباسات كل خطاب يزعم فرض اقتضاء إتيقي بكيفية شاملة ومعيارية. بهذا، يسعى باومان إلى تبيان أن الهولوكست كان نتيجة التقاء فريد بين عوامل في ذاتها عادية وجارية. إنه يريد من هذا رفض بعض الأماكن المشتركة حول الإبادة الجماعية لليهود: مأساة داخلية للتاريخ اليهودي، ذُروة نزعة معاداة السامية الألمانية، حادث مسار لا يقبل التفسير للحضارة الغربية ... يدرس عالم الاجتماع بشكل خاص الطريقة التي نسخت بها الإبادة الصناعية إجراءاتها وأجهزتها حول مخططات الفعل

(1) Zygmunt Bauman, les coûts humains de la mondialisation, trad. De l'anglais par Alexandre Abensour, Paris, Hachette, 1999 ; Modernité et holocauste, trad. De l'anglais par Paule Guivarch, La Fabrique, 2002 ; La Vie en miettes. Expérience postmoderne et moralité, trad. de l'anglais par Christophe Rosson, Rodez/Nîmes, Le Rouergue/Chambon, 2003 ;L'Amour liquide. De la fragilité des liens entre les hommes, trad. de l'anglais par Christophe Rosson, Rodez/Nîmes, Le Rouergue/Chambon, 2004.

البيروقراطي العقلاني للبلدان المصنعة. بتحليل أوشفيتز كامتداد لنظام صناعي حديث، المجرمين النازيين مثل رجال عاديين استولت عليهم ديناميكة عملية الإبادة، بذل باومان جهده لإدراج الهولوكست في قلب المجتمع الحديث. بكيفية ماكرة إلى حد ما، فإن هناك نزوعًا يتضمن إعفاء الحداثة بفصل الهولوكست وبتفسيره كهيجان قوى ما قبل حديثة (همجية، لا عقلانية، يتعذر رفضها) منهزمة منذ مدة طويلة في المجتمعات المسماة عادية. مثل هذه القوى لم يتم التحكم فيها بشكل جيّد عن طريق التحديث الألماني الفاشل. هذه المأساة تؤكد ثانية بشكل متناقض وغير مباشر أسطورة الحضارة الحديثة بوصفها انتصارًا للعقل على الأهواء وكذا القناعة الإضافية التي وَفقًا لها يُشكّل هذا الانتصار خطوة حاسمة على سبيل التطوّر التاريخي للأخلاق. وبهذا يتّم الانتقال من الحداثة إلى العصر البالغ. أحيانًا، يتعلق الأمر بنتيجة غير متوقعة للحداثة أو كذلك ببروز عصر ما بعد الحداثة. ومع ذلك فمن المستحيل الحكم بنتائج الأحداث التي قادت إلى هدم القيم الحديثة. مهما يكن السبب، فالأمر يتعلق بتحملٍ كامل للمسؤوليات واستخلاص النتائج بطريقة بنائية.

بشكل متزايد، صارت تخوفاتنا مرتبطة بنهاية العالم التي أضحت ممكنة بواسطة ديناميكية الحضارة التكنولوجية كما هي:

اليوم، لم تعد التكنولوجيا حلًّا للمشكلات؛ إنها تمثل بالأحرى إمكانية النفاذ أو المرور إلى تكنولوجيا معطاة تحدد من جديد، الواحدة بعد الأخرى، أجزاء الواقع الإنساني باعتبارها مشكلات تطالب على وجه السرعة بحلّ[2].

لهذا ينبغي أن تستشكل المسؤولية وأن يعادَ تأويلها باستمرار حسب الإلزامات الجديدة. وهكذا تأتي الرهانات السوسيو اقتصادية لتعزز تحاليل باومان في التكاليف البشرية للعولمة.

## وجود متشظّي:

في الكتاب الصادر سنة (١٩٩٨) تحت عنوان العولمة. النتائج الإنسانية (Globalsation. The HumanConsequences)، حيث البعد النقدي متضمن بلا شك، يدين باومان بحدّة قوى الاستلاب التي تهيمن على مجتمعاتنا الخاضعة لإلزامات السوق. ويؤكد على أمر خاص ألا وهو أن الفرد

(2) Z. Bauman, Modernité et holocauste, op. cit., p.274.

يميل إلى أن يصبح مستهلكًا وأن وجوده يُستلب في وثبة استهلاك شرِه. من الناحية المثالية، المواطن ما بعد الحداثي لا ينبغي أن يثبت اختياره، يجب ألا تكون له التزامات نهائية، كما ينبغي له ألا يعتبر الحاجة مشبعة تمامًا، والرغبة بوصفها مطلقة. إن ما يهم قبل كل شيء، هو الطابع المتبخّر للعقود والالتزامات. فمنظور تحمل نتائج أفعاله، مهما تكن، يبدو أقل إثارة للقلق أو إحراجا طالما أنها غير أكيدة أو بعيدة. وإذا كانت الحداثة قد أثارت أجل الإشباع على أمل أنه تشبّع مرة أخرى حالما ينتهي الأجل، أما فيما يخص العالم ما بعد الحداثي فإنَّه يُبشّر بأجل الدفع. وإذا كانت دفاتر الادخار هي لب الحياة الحداثية، فإن بطاقة القرض صارت في أعين باومان براديغم الحياة ما بعد الحداثية. تقدم الثقافة اليوم العالم وكأنه مجموعة من الشذرات والحلقات حيث لا تطرد صورة سابقتها ولا تعوضها إلا كي تستبدل ذاتها اللحظة التي تتبع.

في سطوة الآنية هذه، أصبح الانتباه أندر المصادر، فكل شيء محسوب حتى يكون له تأثير بالغ، كثافة قصوى؛ لأن الخيال قد سئم الآن، بما أنه باستمرار مصدوم. ولإثارته، يجب أن يكون هناك على الدوام صدمات أكثر عنفًا وأكثر تحطيمًا من السابقة. نوع من البطلان الفوري يُهيمن بالقياس إلى أن الانتباه يتوفر على قدرة محدودة وأنه ينبغي ترك المكان مباشرة لاستيعاب مشاهير جدد، موضات أو لوبيات.

في هذا الفضاء من الحرية الذي يعطَى باستمرار إلى المواطنين وإلى المستهلكين ما بعد الحداثيين، فإن القواعد تتغيّر بلا نهاية. تكمن الإستراتيجية في عدم إطالة أي جزء، وهو ما يحمل على حذر حقيقي إزاء التزامات طويلة الأمد. يتعلق الأمر بشكل أعمق برفض عدد معين من المبادئ، رفض التثبيت بكيفية أو بأخرى، عدم الشعور بالارتباط إلى مكان، عدم تكريس حياته كليةً لميل، عدم القسم والوفاء لأي شيء ولا إلى شخص، عدم الرغبة في التحكم بالمستقبل: السهر على ألا تبقى نتائج اللعب عالقة به وأن يتخلى عن المسؤوليات التي تدوم. يتعلق الأمر أيضًا بحظر حمل الحاضر على الماضي. وإجمالًا، يتعلق الأمر بتقسيم الحاضر إلى طرفين، وفصله عن كل شكل من التأريخية، بإلغاء

كل صورة من زمان آخر من مجموع أو حصة جزافية للآنات الحاضرة:

فهذا هو المجموع الذي يعمل على إخفاء كل علامة متجذرة أو مثبتة من سلطته الخاصة لخرائط العالم، ومن مخططات حيث ترسم مسارات حيواتنا. ففي حياة المستهلك، القيام بسفر ممتع أفضل وأمتع بكثير من الوصول إلى وجهة[3].

> **نوع من البطلان الفوري يُهيمن بالقياس إلى أن الانتباه يتوفر على قدرة محدودة وأنه ينبغي ترك المكان مباشرة لاستيعاب مشاهير جدد، موضات أو لوبيات.**

من البديهي إذن ألا تفعل العولمة سوى بتكثيف هيمنة السوق ونزعة المغازلة (الدونجوانية donjuanisme) الاستهلاكية.

## الهوس الأمني، نتيجة للعولمة؟

إن تحاليل باومان للعولمة تبين أنه وبعيدًا عن إخضاع أنماط الحياة لتوحيد موسع، فإن من تأثير حيادية المسافات الفضائية ـ الزمنية معارضتها. إنها تخلّص البعض من القيود الإقليمية وتعطي بعدًا إقليميًّا خارقًا لدلالات جماعوية. لكن، من وجهة نظر أخرى، فإنها تحرم من دلالتها ومن قوتها الهووية الإقليم الذي يظل بعض الناس مرتبطين به بلا رجعة. إن الدلالة الأكثر عمقًا لفكرة العولمة التي تحيل إلى الطابع اللا محدود والمتقلب للشؤون العالمية. ضمن محيط من اللا تحدّيد واللا تميّز كهذا، فإن نزعة من الامتثال والانسياق تفرض نفسها، وإن الخوف من الانحراف يصبح ترددًا دائمًا ويترجم بالحاجة إلى الأمن. في هذا المستوى يقوم باومان بتحليل كيف تنتج الحاجة للأمن هذه من عملية معممة للتشظي والتفتت. وكلما تكثفت العولمة، زاد عدم استقرار مرجعياتنا للمعنى وزاد معها إيقاظ غريزة الانطواء. وكلما ازدادت كذلك التدفقات بأكثر عنف اتسعت الحاجة إلى الأمن، إلى حد اتخاذ أشكال رمزية: الرغبة في أن يكون معترفًا بها من طرف المجتمع ومن طرف الآخرين، ألا يكون خاصة مهمشًا، أن يوجد في وضعية أكيدة. في هذه الحالة من الخوف ما بعد الحداثي لعدم الاكتفاء أو لما هو

(3) Z. Bauman, les coûts humains de la mondialisation,op. cit., p.130.

«غير كافٍ»، فإن الوضعية هي أيضًا أكثر دقة. ويرجع هذا في جزء منه إلى أن العالم وحتى الذي تعمل فيه، وخلافًا للعالم الحديث الكلاسيكي، متشظٍّ ومجزأ.

نحن لسنا مجموعة حيث إن طموحات الدولة الحديثة بُذلت سابقًا للذوبان في شمول، إنَّما مجموع أفراد يشعرون أكثر فأكثر بأنهم تركوا لحالهم (مهملون). وينبغي على الفرد أن يتغلب على اللا يَقين. كل واحد يجد نفسه في الوقت ذاته قد سُلِّم لرعاية خدمات الخبراء الذين ينزعون ثقل المسؤولية عن أكتافنا عبر تنظيم عوضًا عنا حمل الفهم الثقيل والمثير للقلق. فالخبرات من كل نوع تُشكّل في هذا المعنى سلطة هائلة لتحييد أحاسيسنا الأخلاقية. وتكبح البيروقراطية بشكل معتبر الاندفاعات الأخلاقية، وتجعل بهذا شرًّا من النمط الميتافيزيقي ممكنًا.

## الحياة الأخلاقية في عصر التشظي:

إن للحاضرية [النزعة أخذ بعين الاعتبار الزمن الحاضر] التي تهيمن اليوم تأثيرات قوّية على الحياة الأخلاقية. لأن متابعة اندفاع أخلاقي يحتاج لثبات ويفرض تحمل المسؤولية لزمن طويل. إذن اللا التزام والانهمام بتجنّب الالتزامات ترتد إذن تحت شكل انمحاء الاندفاع الأخلاقي وكذا الحط من قيمة المشاعر الأخلاقية. هذا الانتقاص يمكن أن يبدو كما لو أنه يكشف عن خلاف صارخ مع عبادة العلاقة الحميمية بين الأشخاص، السمة الأخرى الكبيرة للوعي ما بعد الحداثي. ومع هذا فلا يمثل هذا تناقضًا أساسيًا. إن هذه العبادة ما هي في الواقع إلا أكثر من تعويض سيكولوجي للوحدة التي تحيط بالأفراد والفجوات التي تفصل بينهم بكيفية دومًا أكثر خطورة. هذا الموضوع يغلب على الكتابات المجمعة ضمن الحياة مفتتة (la vie en miettes). نتعرف بالفعل على الفكرة القائلة إن جذور المشكلات الأخلاقية للمجتمعات ما بعد الحداثية ترتبط عمومًا بصعود اللا اكتراث. لقد تأتى باومان بالخصوص إلى إدانة الالتزامات التي لا تلتزم بشيء، الأفعال التي لا تحمل أي دلالة، إجراءات التوضيع والتقييس يحتمل دومًا أن تحيدَ لقاء أصيلًا مع الغير: «ففي عالم السائح، تم ترويض الغريب، لم يعد يخيف أبدًا»، فهل ينبغي تحمل هذه الألفة والتوجه نحو نزعة تشاؤمية راديكالية؟

إن الأزمات الحالية، مهما تكن محددة وشارحة، فهل تنذر لهذا الحد عن أزمة أخلاقية؟

يقترح باومان تصور انتقال حقيقي من الاتفاق إلى الالتزام. إننا نشهد هنا بوضوح انعطافًا أخلاقيًّا في تفكير السوسيولوجي الذي يؤكد بهذا حساسية لم تكن مدركة في الكتابين المشار إليهما سابقًا. ومن هذه اللحظة يصبح الفيلسوف إيمانويل ليفيناس (Emmanuel Levinas) بالنسبة إلى باومان مرجعًا حاسمًا. إن الأخلاقية المميزة عن الإتيقا التي تكون عادة أداتية، هي انشغال بالآخر الذي يجب أن يشمل نوع من الراديكالية. الوجود الذي يشير حسب باومان إلى التزام عاطفي مع الآخر (l'Autre) والذي ينبغي أن يكون قبل أي التزام في مسار فعل نوعي يتعلق بالآخر (l'Autre). من ثم يفترض أن تعدل العواطف مجرد الوجود مع (être-avec) إلى وجود لـ (être-pour). في البداية، تشير العاطفة إلى خروج من حالة اللا اكتراث. فيما بعد، تسحب الآخر (l'Autre) من عالم التناهي واليقين المنمط وتقذفه في فضاء تحديد فرعي، للتساؤل والتحرر. أخيرًا، تُحرّر العاطفة الآخر (l'Autre) من عالم الاتفاق وتنقله إلى عالم لا تنطبق عليه أية قاعدة كونية، بينما تلك التي تطبق هي بشكل مفتوح وجليّ، ليست كونية، خصوصية. من خلال هذه المراحل الثلاث، فإن الالتزام العاطفي يجعل من الآخر (l'Autre) مشكلًا بالنسبة إلى الأنا. مثل هذه الإشكالية لم تكن مدركة ضمن إتيقا ما فوق الفردية، التي تنظم كل شيء. من الآن فصاعدًا، يقع على عاتق الأنا وحده الفعل والقيام بشيء غير معدٍّ سلفًا بخصوص الآخر (l'Autre). هذا الأخير يمر تحت مسؤولية الأنا. وبهذا الشرط تبدأ حقيقة الأخلاقية بالنسبة إلى باومان باعتبارها إمكانية للخيار بين الخير والشر:

عندما أشير إلى القواعد، وعندما أمثل العلاقة التي تجمعني بالآخر مثل مادة في جملة روابط مشابهة، نموذج لفئة، حالة مستخلصة من قاعدة عامة، أُفلِتُ من كل مسؤولية عدا تلك المتعلقة بالإجراء. من جانب آخر، كوني مرتبط بالآخر بوسائل عاطفية فذلك يعني أني مسؤول عنه، وفوق هذا كله ما يمكن لفعلي أو للا فعلي أن يقدمه

لـه. أنـا لسـت رقـمًا، مـادة قابلـة للتبـادل ضمـن مجموعـة، ثغـرة يمكـن ردمهـا في شـبكة علاقـات[4].

في حـين، لمـا يأخـذ الآخـر (l'Autre) في شـبكة عواطفـي فذلـك يحـدث تبعيـة جديـدة، تبعيـة متبادلـة: هـذه التبادليـة تصبـح مسـؤولية وحيـدة.

في الوقـت نفسـه، يرجـع لـكل واحـد منـا بتطويـر القصـد بـأن تكـون مسـؤولًا إلى مسـؤولية عمليـة، وملئهـا بمضامـين التـي ليسـت لهـا قبليًّـا (a priori)، أن يناضـل حتـى يكـون ممكنًـا، ضـد كل احتـمال، لملئهـا، لتنفيذهـا. في هـذه العلاقـة التـي تصبـح كفاحًـا، فـإن الوجـود لَيُشـير إلى كونـك مسـؤولًا عـن الآخـر (l'Autre)، ويفـترض أن تكـون مضايَقًـا وبعيـدًا مقارنـة مـع نظـام آخـر موجـود مسـبقًا. وهـو مـا يعنـي أن المسـؤولية هـي أيضًـا مرادفـة الحريـة. إن مسـار الفعـل لـم يكتـب بعـد. ولـم يتحـدد التمييـز بعـد بـين الخـير والـشر. في هـذا المسـتوى، يتقمـص جيـدًا باومـان طمـوح ليفيناس في نـزع الطابـع الرسـمي للعلاقـة بالآخـر عـبر المطالبـة بجـزء مـن الاسـتقلالية المعتـبرة باطنـة في السـلوك الأخلاقـي. تفلـت الاسـتقلالية مـن كل تشـفير؛ لأنَّهـا لا تصلـح لـشيء آخـر سـوى ذاتهـا ولا تقيـم علاقـة مـع عنـصر خارجـي عنهـا، ولا علاقـة يمكنهـا أن تضبـط أو تعمـم. إن السـلوك الأخلاقـي، كـما يقـول باومـان في صـدى لليفينـاس، يسـتثار بمجـرد حضـور الآخـر (l'Autre) باعتبـاره وجهًـا (visage)، أي باعتبـاره سـلطة عاجـزة تفلـت مـن نظـام التصنيـف. هـذا مـا يفـرق المسـؤولية الأخلاقيـة عـن المسـؤولية القانونيـة والتـي وفقًـا لهـا يعـد مسـؤولا كل واحـد يخضـع لواجـب الاسـتجابة عـن ضرر أمـام العدالـة. عـلى العكـس مـن ذلـك فـإن الفعـل الناجـم عـن خـوف مـن العقـاب أو الوعـد بمكافـأة، لا تحمـل فيـه المسـؤولية الأخلاقيـة نجاحًـا أو مسـاعدة عـلى البقـاء. وبمـا أنهـا فاقـدة للهـدف، فإنهـا تفلـت مـن كل برهنـة عقلانيـة، وتقـوم بإلغـاء كل حكـم حـول الاهتـمام العقـلي وكل نصيحـة حـول غريـزة المحافظـة المحسـوبة. فوجـه الآخـر (l'Autre) هـو حـدٌّ مفـروض عـلى جهـد الوجـود وعـلى الاكتفـاء الأنطولوجـي. إنـه يعطـي بالتـالي الحريـة القصـوى: حريـة أمـام كل مصـدر ارتهـان، وكل تبعيـة، وإصرار الطبيعـة في

(4) Z. Bauman,La Vie en miettes, op. cit., p.335.

الوجـود. إن الأخلاقيـة هـي، مثلـما يقـول باومـان، لحظـة سـخاء (un instant de générosité). إنـه أحـد يلعـب مـن دون لمـاذا، يلعـب مـن دون أن يربـح ومـن دون أن يحسـب، لكـن يجـب أن تكـون لـه الشـجاعة لتحمـل ثقـل عواطفـه التـي لا تمثـل أبـدًا مـا «يُحطـم» الحكـم. مـن وجهـة نظـر مجتمعيـة، فـإن سـلوكًا مسـتوحًى مـن الأخلاقيـة هـو مـن دون جـدوى تمامًـا، حتـى لا نقـول إنـه مدمـر، ذلـك أنـه لا يمكـن أن يسـتغل في أي هـدف ويفـرض حـدودًا عـلى كل أمـل في الاسـتقرار.

> **إن الأخلاقية هي، مثلما يقول باومان، لحظة سخاء (un instant de générosité). إنه أحد يلعب من دون لماذا، يلعب من دون أن يربح ومن دون أن يحسب، لكن يجب أن تكون له الشجاعة لتحمل ثقل عواطفه التي لا تمثل أبدًا ما «يُحطم» الحكم.**

لكـن هـل مجانيـة كهـذه تقبـل حقًّـا التصالـح مـع الواقـع الاجتماعـي؟ ومـاذا يعنـي في هـذا الصـدد الشـغف الحـالي بالأخـلاق أو الإتيقـا؟ إننـا نلاحـظ تضخـمًا في مرجعيـة الإتيقـا هـذه السـنوات الأخـيرة. لكـن، بالنسـبة إلى باومـان فالأشـياء واضحـة. ففـي معظـم الحـالات، التحـدث بلغـة القيـم يسـهم في إعطـاء مظهـر لمعنـى في عـالم الأعـمال وتحريـر التبـادلات مـن القيـود السياسـية الحقيقيـة. وكـما لاحـظ باومـان بشـكل صحيـح جـدًّا أنـه أحيانًـا، مثلـما هـو الحـال في منتجـات الاسـتهلاك «المحترمـة للبيئـة»، فـإن الحجـة الأخلاقيـة أو الإتيقيـة اتضحـت بأنهـا، مـن جهـة أخـرى ممتـازة عـلى المسـتوى التجـاري. ولا يمكـن إنـكار أن الأعـمال، عـلى غـرار البيروقراطيـة، لا تتطلـب إلا تفسـيرًا جيـدًا والدفـاع عـن أسـلوبها الخـاص في الأخلاقيـة، المسـمى إتيقـا الأعـمال (éthique des affaires). وهـو مـا لا يتـم مـن دون إثـارة مشـكلات كبـيرة. إن القيمـة الأولى لهـذه الإتيقـا المشـفرة هـي النزاهـة، التـي تعتنـي خاصـة بحفـظ الوعـود والتمسـك بالواجبـات التعاقديـة. ومـن دون هـذه النزاهـة، لا يمكـن للأعـمال أن تزدهـر. وبـالإصرار عـلى أن جميـع أطـراف العقـد ينبغـي أن تتشـبث بهـذا المبـدأ، فـإن الـشركاء يدافعـون عـن أنفسـهم ضـد خطـر الإمضـاء عـلى عقـود مـع مؤسسـات فاسـدة. الأهـم أيضًـا، مـع ذلـك، إنهـم يبدعـون لاسـتعمالهم محيطًـا نسـبيًّا منظـمًا ومرئيًّـا يكـون مـن دونـه

غير مقبول اتخاذ قرارات عقلانية من وجهة النظر الأداتية. وعلى الرغم من ذلك، مثلما هو الحال لكل مدوّنة إتيقية، تعتني إتيقا الأعمال بـ: بمثل ما يتم الإعلان عن بعض أنماط السلوكات الإلزامية على المستوى الإتيقي، يتم تحييد أنواع أخرى من الأفعال على الصعيد الإتيقي، بناء على أمر أو بإلغاء، أو بفعل بجعل قضايا ليست أخلاقية مطلقًا. يشرح القانون جيدًا وبوضوح إلى أي حدّ يمكن للنزاهة أن تبلغه وفي أي لحظة يمكننا القول عن شخص أنه كان نزيهًا بقدر كافٍ. كل ما يمتد خارج هذا الحد لا يهم إتيقا الأعمال[5].

> **يشرح القانون جيدًا وبوضوح إلى أي حدّ يمكن للنزاهة أن تبلغه وفي أي لحظة يمكننا القول عن شخص أنه كان نزيهًا بقدر كافٍ. كل ما يمتد خارج هذا الحد لا يهم إتيقا الأعمال.**

تختفي عقلانية الأعمال عن مسؤولية نتائجها الخاصة ولهذا السبب يمكننا إضفاء النسبية على هذا الشغف بالإتيقا الذي هو في الأخير مجرد اهتمام. إن الهشاشة الاجتماعية واللا مساواة المرتبطة بالنظام النيوليبرالي والتي تسارعت وانتشرت عبر تسهيلات نقل المؤسسات قليلة الدقة والتي قررت الانتقال نحو آفاق أكثر جاذبية. فالضحايا الجدد ليسوا ضحايا الاستغلال بقدر ما هم ضحايا للتخلي الناتج عن اللا اكتراث الأخلاقي، والذي هو من دون أدنى شك أيضًا مدانٌ.

## ما بعد الحداثة: مرحلة للأخلاقية؟

إن نماذج التنظيم الحالية لا تشجع، على الأقل صراحة، على أي سلوك لا أخلاقي لكنَّها لا تيسر أيضًا الخير. وفقًا لباومان، فإنها تجعل حقًا الفعل الاجتماعي لا مكترث، أي لا خير ولا شرير، يقبل القياس فقط على ضوء المعايير التقنية التي ليس لها دلالة سياسية حقيقية. يشير باومان إلى حنة آرندت (Hannah Arendt) للتأكيد على فراغ الفضاء السياسي. بهذا فإنَّه يأسف معها على أنه لا يوجد أبدًا، في مرحلتنا، مواقع بديهية في داخل الجسم السياسي انطلاقًا منها يصبح من الممكن إعداد تدخلات ذات دلالة وفعالية، حاملة لمشاريع. ازدهرت

(5) Z. Bauman,La Vie en miettes, op. cit., p.353.

تدخلات جزئية، موجهة نحو المهمة ومحدودة في الزمن. لكن بصفة عامة، إنها لا تضاف إلى بعضها البعض كي تشكّل مجموعًا لمعنًى، إنها متشظّية ومجزأة، إنها في الغالب الأعم في خلاف، ولا أحد يمكنه أن يزعم، بأقل ضمان، معرفة النتيجة مسبقا.

إن التدخلات البشرية التي هي فعلًا ملتزمة لا تستنفد ضمن تعقيد النظام الاجتماعي، المعتم والكتيم، إلا لكي يتدفق مجددًا فيما بعد في شكل يثير أكثر كارثة طبيعية منها أفعال إنسانية متروّية. من جهة ثانية، يبدو بديهيا، بسبب طبيعة الخيارات التي نحن الآن بصدد مواجهتها، وحيث أن المبادرات الخاصة والتدخل اللا منتظم لا يوفون بالغرض، إنها بالأحرى تصير جزءًا من المشكلة، وفي كل الحالات، فهي ليست أبدًا حلولًا. ومن الواضح، من الضروري وضع نوع من الفعل المنسق والمتفق عليه.

حسب باومان، يبدو جليًّا أنه يمكننا الاقتراب من ترقية أخلاق جديدة منها مثل مسألة ومهمة سياسية. وهذا المثال السياسي هو ما يجب محاولة التفكير فيه مجددًا من دون التوقف عند الإطار التشريعي. لأنَّه إذا كان التشريع بمقدوره إثارة أو لا سلوك من هذا النوع مرغوب، فليس لها في المقابل أي حظٍّ لتحقيق ترقية المسؤولية الأخلاقية التي ليست متميزة عن الطاعة القانونية. إن أحد الرهانات السياسية الحالية يتضمن إعادة التفكير في الاختلافات والتعدديات. فالإنسانية المعاصرة تعبّر بواسطة أصوات متعددة. إن القضية الأساسية لعصرنا تكمن بالتالي في معرفة كيف يعاد تأسيس تعدد الأصوات (بوليفونيا polyphonie) في انسجام (هرمونيا harmonie) وبخاصة كيف يمنع تحولها إلى تنافر(كاكوفونيا cacophonie). إن بحثًا عن الانسجام لا ينبغي أن يؤدي بالضرورة إلى تماثل إنَّما يجب على العكس أن يسمح بتفاعل عديد الأسباب المختلفة، كل واحد يحافظ على هُويّته الخاصة واختلافه. لقد رأت حنة آرندت بأن القدرة على التفاعل هي خاصية البوليس (polis) المدينة السياسة، والتي نعتبر فيها، أثناء لقاءاتنا، أنفسنا بمثابة متساوين تمامًا مع اعترافنا بتنوّعنا ونهتم بالحفاظ عليها بوصفها الهدف

ذاتـه للقـاء. مـن جهتـه يؤكـد ليفيناس عـلى فضائـل اجتماعيـة مختلفـة عـن اجتماعيـة مضافـة ومركبـة. ولمـا نأخـذ بعـين الاعتبـار نمطـي البرهنـة، يتسـاءل باومـان في النهايـة كيـف يقـارب مفهومًـا كهـذا للحيـاة السياسـية.

انطلاقًـا مـن هـذه المعـاني للمسـافة، التفاضـل، الالتـزام حيـث يجـدر إعـادة التفكـير في مكانـة الكائـن المسـؤول ضمـن سـياق مجتمـع حيـث ينـزع المواطنـون إلى أن يصـيروا مسـتهلكين غـير مبالـين. لأنَّـه إذا تعلـق الأمـر اليـوم برفـض أكـثر حزمًـا، فهـو للأيديولوجيـا المهيمنـة التـي تنمّـي أجـواء التفويـض، والتـي تقـال تقريبًـا بهـذه العبـارات: اتركـوا العارفـين يتخـذون القـرارات وهـم يحرصـون عـلى رفاهيتنـا. أمـا فيـما يخصكـم أنتـم، اعتنـوا بمـا يهمكـم مباشرة: حافظـوا عـلى راحتكـم والقيـم الأسريـة. بينـما، لـدى باومـان، فـإن مجتمعًـا يريـد إلـزام مواطنيـه بجعلهـم أكـثر انتبـاه إلى الآخريـن بحيـث يمكـن للحيـاة المشـتركة أن تحـترم معايـير العدالـة والحصافـة، ينبغـي قطعيًّـا الانفصـال عـن ذهنيـة الاسـتهلاك التـي تهيمـن اليـوم والتـي تحيّـد اتخـاذ كل موقـف نقـدي حقيقـي. إن أكـثر مـا يحتفـظ بـه باومـان مـن التجربـة اللفيناسـية، والـذي يسـتعيده بطريقـة جديـدة ضمـن سـياق سوسـيولوجي، هـو أن المسـؤولية شيء آخـر غـير النزعـة الشـكلية الصوريـة أو مجـرد خضـوع لمبـادئ. فالمسـؤولية هـي مـا يتوجـب، مـا لا يمكـن رفضـه إنسـانيًا، وبشـكل خـاص، مـا يدعونـا إلى التـزام عاطفـي يتعـالى عـلى كل امتثـال إتيقـي.

### * روابط دائمًا أكثر هشاشة:

ضمـن تعـدد الاصـوات المتنوعـة، التـي غالبًـا مـا تكـون ناجمـة، عـن رهانـات متناقضـة ومتنازعـة والتـي تخـص تميـز الوضـع مـا بعـد الحـداثي الـلا منتظـم، لا يمكننـا الاعتقـاد أبـدًا أن الفصـل بـين الخـير والـشر قـد تـم تحديـده مسـبقًا تـاركًا بهـذا للفـرد المهمـة الوحيـدة في تطبيـق مبـدأ موحـد يتناسـب مـع ظـرف قابـل للتشـخيص. إن عرضيـة الوجـود، الطابـع المتقطـع للوضعيـات ينتـج تطـورًا سريعًـا لمعايـير الأخلاقيـة بينـما كانـوا فيـما سـبق محدَّديـن سـلفًا وثابتـين. إن النسـاء والرجـال مـا بعـد الحداثيـين عليهـم أن يواجهـوا بعضهـم البعـض بمسـؤوليتهم الأخلاقيـة الخاصـة. وحدهـا فقـط مسـؤولية مـن

هـذا النمـط، تتحمـل صمودهـا إزاء التوضيـع وتظـل باسـتمرار إشـكالية، يمكـن أن تصبـح حقًّـا مناسـبة. إن الرهـان بالأحـرى مهـم في مجتمـع حيـث تبقـى الروابـط أساسًـا هشـة وغـير أكيـدة.

في الحـب السـائل (Liquid love)، الـذي ظهـر مؤخـرًا بالفَرنسـية، يؤكـد باومـان عـلى الازدواجيـة القصـوى التـي تهيمـن عنـد الوقائـع. أكـثر مـن أي وقـت مـضى، يرغـب معاصرونـا في ضـمان الوحـدة في حـين يفضلـون الانخـراط في علاقـات يكـون مـن الأيـسر عـلى الـدوام الخـروج منهـا. فـالأزواج يتشـكلون، يتحللـون ثـم يتشـكلون ثانيـة بحسـب التطلعـات والرغبـات. وفي النهايـة الإنسـان المعـاصر مـن دون روابـط واقعيـة، فهـو في الآن نفسـه مفتـتنٌ بمرونـة العلاقـات الافتراضيـة ومحكـوم عليـه بتحمـل حالـة دائمـة مـن الهشاشـة التـي تؤثـر تمـس مجمـوع العلاقـات الشـخصية، الاجتماعيـة والمهنيـة:

بمـا أن القـدرات لا تجـد مرخصًـا لـه قبـل حتـى أن تكتسـب ويتـم التحكـم بهـا، مثـل المرجعيـات المدرسـية تفقـد مـن قيمتهـا أمـام أثمانهـا في السـنة أو حتـى تصـير رأسـمال سـلبي قبـل أن تبلـغ التاريـخ النهـائي للبيـع الـذي يفـترض أن يـدوم كل الحيـاة، مثلـما أن أمكنـة العمـل تختفـي مـن دون إنـذار بـل ولا واحـد، وبمـا أن مسـار الحيـاة يُـرى متقطعًـا في سلسـلة مشـاريع اسـتثنائية دائمًـا جـد مختـصرة، فـإن منظـورات الحيـاة تشـبه أكـثر فأكـثر إلى تلافيـف عشـوائية لـصواريخ ذكيـة في ملاحقـة أهـداف غـير قابلـة للإمسـاك، عابـرة ومتقلبـة، بـدلًا مـن المسـار الباليسـتي المصمـم والمحـدد قبـلًا، الممكـن رؤيتـه، مـن قبـل صـاروخ[6].

**في الحب السائل (Liquid love)، الذي ظهر مؤخرًا بالفَرنسية، يؤكد باومان على الازدواجية القصوى التي تهيمن عند الوقائع. أكثر من أي وقت مضى، يرغب معاصرونا في ضمان الوحدة في حين يفضلون الانخراط في علاقات يكون من الأيسر على الدوام الخروج منها.**

(6) Z. Bauman,L'Amour liquide,op. cit., p.112.

بالنسبة إلى باومان، فإن مداومة كهذه للعابر، الانغمار في مد الوجود، غياب التجذر، هي بحق خصائص تنتقل، مثلًا، في مخيمات اللاجئين والتي تتميز بطريقة جديدة: عابر مجمد، حالة مستمرة، ديمومة مصححة بلحظات لا تستدعي أية أبدية. بالنسبة إلى اللاجئين، لا هم مستقرين ولا هم رحّل، فإن منظور الاستتباعات على المدى البعيد ونتائجه لا تعتبر جزءًا من تجربتهم، فهم مجبرون على العيش يومًا بيوم. في حين، الأقلمة الخارقة المثبتة إقليميًا لمخيمات اللاجئين، فإن صفات المرحلة الحالية تبدو في صورة دومًا أقصى، نقية ومرئية بشكل أفضل منها في كل قطاع آخر من المجتمع المعاصر.

ربما سيأتي زمن حيث سنكتشف الدور الطليعي الذي لعبه اللاجئون الحاليون في استكشاف طعم الحياة في «مدن اللا مكان» (nowherevilles)، والدوام المكثف للعابر الذي يمكن أن يصبح سكنًا مشتركًا لسكان الكوكب المعولم، المكتمل[7].

على الرغم من هذه المنظورات الأكثر عتامة، فإن باومان لا يريد أن يذعن لأي شكل من اليأس. على العكس فإن التحديات تبدو أيضًا أكبر وأنبل في المسافة التي تفصل تاريخنا عن المثال لجماعة إنسانية ناجزة.

لم يحدث في مرحلة ما، أن كان البحث الحثيث عن إنسانية مشتركة والممارسة التي تبعت فرضية كهذه بمثل هذا الاستعجال والإلزام بقدر ما هي عليه اليوم. ففي مرحلة العولمة، فإن قضية وسياسة إنسانية متقاسمة تجابه أكثر المراحل حتمية وخطورة التي تخطتها أثناء تاريخها الطويل[8].

تركنا هوامش المقال كما وردت في المقال الأصلي لأنَّها عبارة عن إحالات في أغلبها -وهي قليلة (ثماني إحالات)- لمؤلفات ونصوص زيغمونت باومان عاد إليها صاحب المقال مستشهدًا بها في تحليله لآراء باومان.

(7) Z. Bauman,L'Amour liquide,op. cit., p.176.

(8) Ibid.,p.185.